إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه وآله

السيّد محمود المدني

تمهيد

يتفق جميع المسلمين، والشيعة منهم على الأخصّ، على أنّ النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله بن عبد الله هو أفضل مخلوقات الله سبحانه وأشرفهم على الإطلاق[1].

وقد حرص علماء الدين على مرّ العصور الإسلامية على تدوين وكتابة كلّ النواحي المتعلقة بسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وذلك للغور في بحور عظمته، بحيث لم تتسنّ كتابة سيرة أيّ نبيّ آخر أو أيّ شخصيّة تأريخية بهذا الشكل المفصّل الدقيق.

واليوم، وبعد مضيّ أربعة عشر قرناً، يُمكننا الاطلاع حتى على أسماء وسائل النبيّ صلى الله عليه وآله وأدواته بشكل دقيق، إضافة إلى تاريخ ولادته وهجرته وجهاده ووفاته وعدد زوجاته، ذلك كلّه نجده ماثلاً أمامنا في النصوص التأريخية.

إلا أنّ ذلك لا يعني ـ بالضرورة ـ عدم جدوائيّة إجراء أيّ تحقيق أو بحث في المجالات المذكورة، فلا زال هناك مجال واسع للتحقيق الأمر الذي يتطلب من المفكرين والعلماء الغوص والبحث عن كنوز تلك السيرة العطرة. وما موضوع إيمان

---

(١) راجع الكافي ١: ٤٤٠، عن علي عليه السلام: ما برء الله نسمة خيراً من محمّد صلى الله عليه وآله.

وتوحيد آباء وأجداد النبيّ ﷺ إلا واحداً من تلك الكنوز التي يُمكن الحصول عليها من قِبل الفرق الإسلاميّة المختلفة، وقد كان، وما يزال، موضوع جدال بين تلك الفرق، وما فتئ البعض من المُغرضين يعتمد تلك البحوث والدراسات منشأ لإثارة الاختلافات والطعون.

وسنتطرق في بحثنا هذا، بصورة موجزة لكن دقيقة، إلى الموضوع المذكور، وسنقوم أولاً بالإشارة إلى النظريات المتعددة ذات العلاقة بموضوعنا، ثم نقوم ببيان النظرية التي استقرّ عليها رأي الموالين لآل البيت عليهم السلام وأنصارهم، مع بيان الأدلّة على تلك النظرية.

النظريات

أ ـ نظرية الشيعة:

يعتقد الموالون لآل البيت عليهم السلام بأنّ أجداد الرسول ﷺ جميعهم كانوا مؤمنين، مُستندين في ذلك إلى ما استقوه من الأئمة الأطهار عليهم السلام. وقد تمكّن بعضهم من إظهار إيمانه علناً، فعُرفوا لدى المحيطين بهم بهذه الخصيصة، إلا أنّ بعضهم الآخر ظلّ يخفي إيمانه بالرّغم من رسوخ إيمانه هذا في السرّ، إذ يرجع السبب في ذلك إلى الفترة الحرجة التي كان يمرّ بها وتفضيلهم اتباع التقيّة في حينها.

فقد كتب المحدّث الكبير أبو جعفر علي بن الحسين بن بابويه المشهور بالصدوق رحمه الله والمتوفى في (٣٨١ هـ)، كتب بهذا الصدد يقول:

«في آباء النبي ﷺ، اعتقادنا فيهم أنهم مسلمون من آدم إلى أبيه عبدالله»[١].

وأمّا الشيخ المفيد رحمه الله فيوضح ما قاله الصدوق، بقوله:

«آباء النبي ﷺ إلى آدم عليه السلام كانوا موحّدين على الإيمان بالله حسب ما ذكره

---

(١) تصحيح الإعتقادات: ١١٧.

أبوجعفر (الصدوق)، وعليه إجماع عصابة الحق»[1].

ويقول الشيخ المفيد في كتاب آخر له:

«واتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله صلى الله عليه وآله من لدن آدم إلىٰ عبدالله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجل، موحدون له»[2].

أما شيخ الطائفة، الطوسي رحمه الله -المتوفى سنة ٤٦٠ هـ-، فكتب يقول:

«ثبت عند أصحابنا أن آباء النبي صلى الله عليه وآله إلى آدم كلهم كانوا موحدين، لم يكن فيهم كافر، وحجتهم في ذلك إجماع الفرقة المحقة، وقد ثبت أن إجماعها حجة، لدخول المعصوم فيها، ولا خلاف بينهم في هذه المسألة».

وكتب المفسّر الشيعيّ الجليل أبو علي الطبرسيّ رحمه الله -المتوفى سنة ٥٤٨ هـ- كذلك -في مَعرض تفسيره للآية الشريفة ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ... ﴾[3] وبيانه لهذا الأمر، وأنّ هذا الخطاب موجّهٌ إلى جدّ النبيّ إبراهيم عليه السلام لأمّه، وإنّما اسم والد إبراهيم عليه السلام الحقيقيّ هو (تارُخ) -كتب يقول:

«لإجماع الطائفة على أن آباء نبينا صلى الله عليه وآله إلى آدم كلّهم مسلمون موحدون، ولما روي عنه صلى الله عليه وآله...»[4].

أمّا العلامة محمّد باقر المجلسيّ رحمه الله -المتوفى سنة ١١١١ هـ- فكتب يقول:

«اتفقت الإماميّة رضوان الله عليهم على أن والدَي الرسول صلى الله عليه وآله وكل أجداده إلى آدم عليه السلام كانوا مسلمين... ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو مصلحة دينية»[5].

وقال في مكان آخر: «تظافرت الروايات وإجماع الشيعة على إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه وآله»[6].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) أوائل المقالات: ٥١.

(٣) مريم: ٤٥.

(٤) مجمع البيان: ٣: ٥١٦.

(٥) بحارالأنوار ١٥: ١١٧.

(٦) المصدر نفسه: ١١٩.

وقد اشتهر الشيعة بهذه العقيدة، وعُرفوا بها، حتى علّق الفخر الرازي في تفسيره على هامش الآية الشريفة ﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ... ﴾[1] بقوله: «المسألة الرابعة: قالت الشيعة: إن أحداً من آباء الرسول وأجداده ما كان كافراً، وأنكروا أن يقال: إن ولد إبراهيم كان كافراً»[2].

ب ـ نظريّة أهل السنة:

ويعتقد بعض علماء أهل السنة كذلك بإيمان أجداد النبيّ ﷺ وتوحيدهم، حيث ذكر العلامة الآلوسيّ البغداديّ (المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ) على هامش تفسير الآية الشريفة ﴿ وتَقَلُّبَك فِي السَّاجِدِينَ ﴾[3] ما يلي:

«أبونعيم عن ابن عباس أنّه رضي الله عنه فسّر التقلّب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أمّه على الصلاة، وجوّز على حمل التقلب على التنقل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون، واستدل بالآية على إيمان أبويه عليه السلام كما ذهب إليه كثير من أجلّة أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما (رضي الله تعالى عنهما) على رغم أنف القارئ وأضربه بضد ذلك...»[4].

وذكر في مكان آخر ما يلي:

«والذي عوّل عليه الجمّ الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم، وادّعوا أنه ليس في آباء النبيّ كافر أصلاً، والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازي ناشئ من قلّة التتبع»[5].

أمّا الكتاني، فقد ذكر في كتاب (النظم المتناثر) ما نصّه:

---

(١) الأنعام: ٨٤.

(٢) تفسير الكبير ١٣: ٣٨.

(٣) الشعراء: ٢١٩.

(٤) روح المعاني ١٩: ١٣٧.

(٥) تفسير روح البيان ٧: ١٩٤.

«أحاديث أنّ جميع آبائه عليه السلام وأمهاته كانوا على التوحيد لم يدخلهم كفر ولا عيب ولا رجس ولا شيء مما كان عليه أهل الجاهلية... ذكر الباجور... أنّها بالغة مبلغ التواتر»[1].

وينبغي أخيراً، وليس آخراً، أن نشير إلى العالم الكبير والموثوق لدى أهل السنة، عنيت به جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى سنة ٩١٠ هـ)، الذي يعتقد بإيمان أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله بكلّ ماللكلمة من معنى، لابل أكد ذلك في الكثير من مؤلفاته؛ ففي كتاب (مسالك الحنفاء)، قام السيوطي بالاستدلال بالقرآن الكريم والروايات المتوافرة، ناقلاً كذلك عن الفخر الرازي الذي أكّد على هذه المسألة في كتابه (أسرار التنزيل)[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفخر الرازي لم يؤمن بهذه المسألة في تفسيره ولم يُشر إلى صحّتها، بل ادّعى الإجماع على أنّ بعض أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكونوا مؤمنين موحّدين[3].

أمّا الكتب التي ألّفها السيوطي بهذا الشأن، أي التأكيد على إيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله فهي:

١ـ مسالك الحنفا في نجاة آباء المصطفى.

٢. الدرج المنيفة في الآباء الشريفة.

٣. المقالة السندسية في النسبة المصطفوية.

٤. التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة.

٥. السبيل الجليّة في الآباء العلية.

٦. نشر العلمين في إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه صلى الله عليه وآله وإسلامهما

---

(١) النظم المتناثر: ٢٠٢.

(٢) مسالك الحنفاء: ١٧.

(٣) التفسير الكبير ١٣: ٤٠.

على يديه[1].

وكتب المحقق المعاصر جعفر مرتضى العاملي يقول: «صرّح الماورديّ والرازي في كتاب أسرار التنزيل، والسنوسيّ والتلمساني كذلك، صرّحوا بإيمان آباء النبيّ صلى الله عليه وآله الكرام»[2].

وقد وقف بعض علماء السنة بشدّة وحزم بوجه من كفّر أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث نقل جلال الدين السيوطي عن أستاذه قائلاً: «سُئل القاضي أبو بكر بن العربي: ما تقول فيمن يدّعي أنّ أبا النبيّ صلى الله عليه وآله في النار؟! قال: ملعون من يقول هذا، لقول الله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الله ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ الله فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ...**﴾[3]، ولا أذىً أعظم من أن يُقال عن أبيه صلى الله عليه وآله: إنّه في النار»[4].

وقد نقل السيوطيّ عن أبي نعيم الإصفهانيّ قوله:

«أتي إلى عمر بن عبد العزيز كاتب كان أبوه كافراً، فقال عمر في شأنه: لو كان من أبناء المهاجرين لكان أفضل. فأجاب الكاتب: لقد كان أبو النبيّ صلى الله عليه وآله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك وقال: لا ينبغي لمثل هذا أن يعمل في ديوان الخلافة أبداً!» [5].

ونُقِل عن شيخ الإسلام الهرويّ قوله: «قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن سعد: إنّ عاملنا في المكان الفلاني كان أباً لك كافراً. فأجاب سليمان: وكان أبو النبيّ صلى الله عليه وآله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك بشدّة وأمر بعزله عن الديوان في الحال!»[6].

ورغم أنّ العجلونيّ ـ المفسّر والمحدّث المعروف ـ كان يعتقد بذلك، فقد

---

(١) نقلاً عن بحار الأنوار ١٥: ١٢٤؛ الصحيح من سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله ٢: ١٨٦.

(٢) الصحيح من سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله ٢: ١٨٦.

(٣) الأحزاب: ٥٧.

(٤) الدرج المنيفة: ١٧.

(٥) المصدر نفسه: ١٨.

(٦) المصدر نفسه: ١٩.

كتب يقول:

«و قد ألّف كثير من العلماء في إسلامهما شكرالله سعيهم منهم الحافظ السخاوي، فإنه قال في المقاصد: قد كتبت فيه جزاءً»[1].

ثم نسبَ هذا الاعتقاد إلى عدّة أخرى، إذ قال:

«و هذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفّاظ المحدثين وغيرهم، منهم ابن شاهين، والحافظ أبوبكر البغدادي، والسهيلي، والقرطبي، والمحب الطبري، وغيرهم»[2].

وكتب السيوطي:

«قد أخرج ابن حبيب في تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة و مضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم، فلا تذكروهم إلا بخير... وفي روض الأنف حديث: لاتسبّوا إلياس فإنه كان مؤمناً».

و في دلائل النبوة لأبي نعيم:

«إن كعب بن لؤي أوصى ولده بالإيمان بالنبيﷺ وكان ينشد إعلاناً:

يـاليتني شـاهد نجـواه دعـوته إذا القريش تبق الحق خـذلاناً»[3].

وفي مقابل هذه الجماعة، يعتقد الكثير من أبناء أهل السنة أنّ جميع أجداد النبيّﷺ كانوا كافرين![4].

أدلّة النظريّة الشيعيّة:

استند علماء الشيعة ـ في إثبات إيمان أجداد الرسولﷺ ـ إلى القرآن الكريم وإلى السنة والعقل والإجماع والشواهد التأريخيّة الأخرى.

---

(١) كشف الخفاء: ٦٢.

(٢) كشف الخفاء: ٦٥.

(٣) المقامة السند سية: ٩.

(٤) راجع التفسير الكبير ١٣: ٤٠؛ تفسير المنار ٧: ٥٤٥.

الأدلة القرآنيّة:

١ـ قوله تعالى: ﴿ وتَقَلُّبَك فِي السَّاجِدِينَ ﴾.

وردت روايات كثيرة ـ من طريق علماء الشيعة وأهل السنة ـ أنّ المراد من هذه الآية هو انتقالهﷺ في الأصلاب والأرحام المؤمنة الموحّدة.

وفيما يلي نورد نصّين دالّين لإثنين من مفسّري الشيعة الكبار وآخريْن لأهل السنة حول ذلك:

يقول الشيخ الطوسيّ: «في رواية أخرى عن ابن عباس: أن معناه أنه أخرجك من نبي إلى نبي حين أخرجك نبياً... وقال قوم من أصحابنا: إنه أراد تقلّبه من آدم إلى أبيه في ظهور الموحدين، لم يكن فيهم من يسجد لغيرالله»[1].

وكتب الطبرسيّ يقول: «قيل: معناه تقلّبك في أصلاب الموحدين من نبيّ إلى نبي حتى أخرجك نبيّاً، عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام»[2].

ويُحتمل أن تكون الرواية التي أشار إليها الطبرسيّ هي نفس الرواية التي أوردها عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسيره بسند متصل إلى الإمام الباقر عليه السلام، وهذا نصّها:

«عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «﴿ الذي يريك حين تقوم و تقلّبك في الساجدين ﴾ قال: في أصلاب النبيّين»[3].

أو قد يكون مُشيراً إلى رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام التي قال فيها: سألنا الإمام الباقر عليه السلام حول تفسير الآية الشريفة: ﴿ وتَقَلُّبَك فِي السَّاجِدِينَ ﴾؟ فأجاب:

«يرى تقلّبه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من

---

(١) التبيان ٨: ٦٨.

(٢) مجمع البيان ٤: ٢٠٧.

(٣) تفسير القمي؛ وتفسير البرهان ٣: ١٩٢.

نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام[1]».

وقد نقلت روايات مشابهة لما ذكرنا عن طريق أهل السنة بـأسناد مخـتلفة، وسوف نوردها في الأدلة الروائية فيما بعد إن شاء الله.

وقال السيوطي في (الدرّ المنثور):

«وأخرج ابن أبي العدني في مسنده والبزار وابن أبي حـاتم والطـبراني وابـن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال: من نبي إلى نبي أخرجت نبياً»[2].

«و أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبونعيم في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال: ما زال النبي يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته امّه»[3].

وقد أورد بهذا الخصوص روايات أخرى، سنذكرها في الأدلة الروائية فيما بعد.

أمّا أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ، فقد كتب يقول: «﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال ابن عباس: في أصلاب الآباء: آدم ونـوح وإبـراهـيم حـتى أخرجه نبياً»[4].

وقد نسب الفخر الرازي التفسير المذكور إلى الشيعة حيث قال:

«واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبي كانوا مـؤمنين، وتمسّكـوا في ذلك بهذه الآية فقالوا: أو قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾، يحتمل الوجوه التي ذكرتم، ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كـما نقوله نحن وإذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل؛ ضرورة أنّـه لامنافاة ولا رجحان...»[5].

---

(١) تفسير القمي؛ مصدر سابق، تفسير البرهان ٣: ١٩٣، ح ٥.

(٢) الدرالمنثور ٥: ٩٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) جامع الأحكام في القرآن ١٣: ١٤٤.

(٥) التفسير الكبير ٢٤: ١٧٣.

وأورد الحلبيّ بالتفصيل في (السيرة) جميع الروايات التي دلّت على هذا المضمون(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العلماء قد ذكروا احتمالات أخرى ووجوه ثانية في تفسير الآية الشريفة المذكورة، كتقلّبه‌ﷺ في الليل للتعرّف على أحوال أصحابه، أو تقلبه‌ﷺ في صلاة الجماعة بين الساجدين والمُصلّين، أو تقلّب بصره‌ﷺ وملاحظته المصلين أثناء الصلاة، وغير ذلك. لكن مع قبول تلك الاحتمالات، لا ينفى بها المعنى الأوّل ـ وهو إيمان أجداد النبيّ‌ﷺ ـ، لأننا نعلم أنّ الآية الشريفة في القرآن الكريم تحتمل المعاني المتعدّدة بحيث تكون كلها صحيحة، وقد ترد روايتيْن بخصوص آية واحدة، تذكران لها معانٍ ومقاصد مختلفة ومتنوعة، ولهذا ورد في الأحاديث: أنّ القرآن ذو بطون(٢).

ولهذا، فلا يخرج عن السياق كون المعنى المقصود من الآية الكريمة إيمان أجداد النبيّ‌ﷺ، أو المعنى الوحيد للآية الذي دلّ عليه شخص الرسول الكريم‌ﷺ وأهل بيته المعصومين، أو على الأقلّ أحد المعاني أو البطون المتعدّدة لها، والتي بيّنها النبيّ‌ﷺ وأهل بيته، وهم المفسرون الحقيقيّون للقرآن والثقل الأصغر.

٢ـ قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَك ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَك... رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ... ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ... ﴾(٥).

---

(١) السيرة الحلبية ١: ٢٩.

(٢) راجع: الميزان ٣: ٧٤؛ رُوي هذا المضمون مستفيضاً من العامّة والخاصّة.

(٣) البقرة: ١٢٨.

(٤) إبراهيم: ٤٠.

(٥) الزخرف: ٢٨.

في الآيتيْن الأولتيْن، هناك دلالة صريحة وواضحة على طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه أن يجعل في ذريّته جماعة مُسلمة، وبالنظر إلى حرف الجـرّ (مِـنْ) في الآيـتيْن المذكورتيْن، نلاحظ أنّ الطلب المُشـار إليـه لا يشـمل إلا فـئة مُـعيّنة مـن ذريّـة إبراهيم عليه السلام، وهو ما تمّت الإستجابة إليه في الآية الثالثة.

وبعبارة أكثر وضوحاً إنّ الدّعاء المذكور لم يكن حصرياً على وُلد إبـراهـيم المباشرين، بل كان ممتدّاً إلى زمان خاتم الأنبياء، ويكفي أن نذكر تكملة الآية الأولى وهي: ﴿ رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ... ﴾ لتأكيد ذلك، وقـد وردت روايـات عديدة بطرق الشيعة وأهل السنّة تفيد اعتبار النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه مصداقاً لتلك الدعوة[1].

وعلى هذا، لا غرو في إفادة تلك الآيات هذا المعنى بشكل واضح، وهو وجود جماعة مُسلمة على الدوام في ذريّة إبراهيم عليه السلام.

والآن لنضع هذه المقدّمة القرآنية إلى جانب الروايات العـديدة، والتي جـاء فيها عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«أنا من خير سلالة وأشرف عصبة».

فإذا قلنا: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد انحدر من أسرة كافرة ـ ولو لجيل واحد ـ، فإمّا أن نقرّ بعدم وجود فئة مؤمنة في ذلك الزمان، وهو ما يتناقض مع المقدّمة القـرآنـية المستنتجة من الآية؛ وإمّا أن نقرّ بوجود الفـئة المـؤمنة لكـن النـبيّ صلى الله عليه وآله لم يكـن في أحسنها أو أشرفها، مُنكرين بذلك المقدمة الثانية والروايات النـبويّة، أو الإقـرار بأفضليّة الكافر على المؤمن وهو ما لا يتناسب والآية الشريفة ﴿ ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِك... ﴾[2] وعلى هذا، وبعد دحضنا للاحتمالات الثلاثة السالفة لا نجد مفراً من الاعتراف بكون جميع أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله مؤمنين.

ولتأكيد ماقلناه نقوم بعرض بعض تلك الروايات في بحث الأدلّة الروائيّة إن شاء الله، لكننا نشير هنا إلى نماذج:

---

(١) راجع الميزان ١: ٢٨٦؛ روح المعاني ٢: ٣٨٦.

(٢) البقرة: ٢٢١.

الترمذي في صحيحه بإسناده قال: «جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فكأنّه سمع شيئاً، فقام النبي صلى الله عليه وآله على المنبر فقال: من أنا؟ فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام. قال: أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً»(١).

القندوزي عن الترمذي والطبراني والبيهقي وأبونعيم الحافظ بإسنادهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله خلق الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً... وجعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً(٢).

الإمام أحمد بن حنبل، بإسناده عن أبي‌هريرة: إن النبي قال: بعث من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه.(٣)

الأدلّة الروائيّة

روايات الشيعة:

١ـ الكليني: «بأسانيده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: نزل جبرئيل على النبي فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: إنّي قد حرمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك وحجر كفلك...»(٤).

٢ـ الطوسي: «بسنده إلى جابر بن عبدالله الأنصاري، عن النبي صلى الله عليه وآله ـ حديث ـ: إنّ الله تعالى لما أحب أن يخلقني خلقني نطفة بيضاء طيبة فأودعها صلب ابن آدم، فلم يزل ينقلها من صلب طاهر إلى رحم إلى نوح وإبراهيم عليهما السلام، ثم كذلك إلى

(١) صحيح الترمذي ٥: ٢٤٤، ح ٣٦٠٨؛ ينابيع المودة ١: ١١.
(٢) ينابيع المودة ١: ١٤؛ وعن الثعلبي أيضاً بتفاوت يسير عن حذيفة بن اليمان وسلمان، المصدر نفسه ١: ١٥.
(٣) مسندالإمام أحمد بن حنبل ٢: ٣٧٣؛ السيرة الحلبية ١: ٢٧؛ ينابيع المودة ١: ١٥.
(٤) الكافي ١: ٤٤٦، ح ٢١.

عبدالمطلب فلم يصيبني من دنس الجاهلية...»[١].

٣ـ الطبرسي: «بإسناده عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وآله: يا علي، إن عبدالمطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب، ويقول: أنا على دين أبي إبراهيم عليه السلام»[٢].

٤ـ قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في صفات المرسلين:

«فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرّهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلّما مضى سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه، عترته خير العِتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال وثمر لا ينال»[٣].

---

(١) أمالي الطوسي ٤٩٩: ١٠٩٥.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٦٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٩٤.

٥ـ الصدوق، بإسناده عن علي عليه السلام: «والله ما عبد أبي ولاجدّي عبدالمطلب ولا هاشم ولاعبد مناف صنماً قط. قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم متمسّكين به»[١].

٦ـ الصدوق بإسناده المتصل عن جابر بن يزيد الجعفي، عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أين كنت وآدم في الجنة؟ قال: كنت في صلبه هبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب نوح، وقذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم. لم يلتق أبوان على سفاح قط. لم يزل ينقلني في الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، هادياً مهدياً»[٢].

٧ـ الصدوق، بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور واحد... فلم يزل ينقلنا الله عزوجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة...»[٣].

روايات السنّة:

٨ـ الطبراني بإسناده عن ابن عباس: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: «من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبياً»[٤].

٩ـ الهيثمي بإسناده عن ابن عباس: «من صُلب نبي إلى صلب نبيّ حتى صرت نبياً[٥]».

١٠ـ النويري عن الرسول: «لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض حملني في صلب نوح بالسفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني

(١) كمال الدين: ١٧٤ ح ٣٢.

(٢) تفسير البرهان ١٣: ١٩٢، ح ٢.

(٣) تفسير البرهان ٣: ١٩٢، ح ٣.

(٤) المعجم الكبير ١١: ٢٨٧؛ السيرة الحلبية ١: ٤٧.

(٥) مجمع الزوائد ٧: ٨٦.

من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من أبوين لم يلتقيا على سفاح قطّ[1]».

١١ـ السيوطي: أخرج البيهقي وابن عساكر من طرق مالك عن الزهري عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً[2]».

١٢ـ أخرج ابن سعد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله إلاّ كنت في خيرهما».

١٣ـ الرازي: ومما يدلّ أيضاً على أن أحداً من آباء محمد ما كان من المشركين قوله ﷺ: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وذلك يوجب أن يقال: إن أحداً من أجداده ما كان من المشركين[3].

١٤ـ الحلبي: عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: إن الله خلقني حين خلقني جعلني من خير، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً[4]».

١٥ـ الهندي: قال: «كنت وآدم في الجنة في صلبه وركب بي السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، لم يلتق أبواي قط على سفاح، ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفي، مهدي، لايتشعب

---

(١) نهاية الإرب ١: ٣٦٢؛ الخصائص الكبرى ١: ٣٢ بتفاوت يسير.

(٢) الخصائص الكبرى ١: ٣٨.

(٣) التفسير الكبير ١٣: ٣٩.

(٤) السيرة الحلبية ١: ٤٦.

شعبتان إلاّ كنت في خيرهما» أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس[1].

١٦ـ الترمذيّ: روى بإسناده أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم في خير فرقهم، وخير الفريقين ثم تخيّر القبائل فجعلني في خير قبيلةٍ، ثم تخيّر البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»[2].

١٧ـ نقل القندوزي عن الطبراني بإسناده، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لم أزل خياراً من خيار»[3].

١٨ـ نقل ابن أبي الحديد عن الرسول ﷺ أنّه قال:

«نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة»[4].

وقال ﷺ كذلك: «أنا ابن الأكرمين»[5].

أدلّة الروايات

تنقسم الروايات التي أوردناها إلى خمس مجاميع، هي:

أـ الروايات التي تدلّ صراحةً على إيمان أجداد رسول الله ﷺ، ولا مجال للخوض فيها؛ مثل الروايتين رقم (٣) و(٥).

ب ـ الروايات التي تدلّ على أنّه ﷺ قد انتقل عبر الأصلاب والأرحام الطاهرة؛ مثل الروايات رقم (٢؛ ٦؛ ٧؛ ١٠؛ ١٣؛ ١٥؛ و١٨). ويحمل البعض معنى (الطهارة) على أنّها طهارة من الزنا والسفاح، إلا أنّ هذا الرأي خاطئ بدليل كون الشرك هو أنجس النجاسات، وهو ما صرّح به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

(١) كنز العمال ٦: ١٠٦؛ الدرّ المنثور ٥: ٩٨ (بتصرّف).

(٢) سنن الترمذي ٥: ٥٤٤، ح ٣٦٠٧؛ ينابيع المودة، القندوزي ١: ١١.

(٣) ينابيع المودة ١: ١٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ٧: ٦٣.

(٥) المصدر نفسه: ٦٤.

الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾[1].

لذا، فيجب حَمل الطهارة في تلك الروايات إمّا على كونها تضمّ جميع المَصاديق، أو على المرتبة العُليا والمصداق الأظهر كذلك، وهي الطهارة من الشرك؛ وخصوصاً تطرّق بعض الروايات بصورةٍ منفصلة إلى عفاف آباء الرسول ﷺ وأمّهاته، بعد بيان طهارتهم، وهو ما يدلّ على كون هاتين المسألتين منفصلتين عن بعضهما البعض. وقد تمّ نقل وتوارد هذه الروايات، باستثناء ما ذكرنا، في مصادر أخرى لن نتطرّق إليها لمراعاة الإيجاز.

كتب الشيخ الطوسي يقول:

«روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات لم يدنسني بدنس الجاهلية»، وهذا الخبر لا خلاف في صحته، فبيّن النبي أنّ الله نقله من أصلاب الطاهرين فلو كان فيهم كافر لما جاز وصفهم بأنّهم طاهرون، لأن الله وصف المشركين بأنّهم أنجاس فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ[2] ﴾»[3].

وقال الآلوسيّ في تفسيره الكبير، بعد نقله لتلك الرواية:

«وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعوّل عليه، والعبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[4].

ت ـ الروايات التي تدلّ على أنّ الله سبحانه قد أقرّ النبيّ ﷺ في أفضل الزّمر وأشرف الأسر، إضافة إلى عدم خلوّ الأرض من الجماعات المؤمنة، ولو كان النبيّ ﷺ قد انحدر من أسرة كافرة وصُلب مُشرك، فمعنى ذلك أنّه لم يكن ﷺ من أفضل الأسر ولا أشرفها.

---

(١) التوبة: ٢٨.

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) التبيان ٤: ١٧٥.

(٤) تفسير روح المعاني ٧: ١٩٥.

نُقِلَ عن جلال الدين السيوطيّ أنّه استدلّ بالروايات المذكورة على الشكل التالي:

«بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

من ناحية أخرى، هناك بعض الروايات تدلّ على وجود سبعة أنفار أو أكثر من المسلمين المؤمنين في الأرض في كلّ زمان، كما روى عبد الرزاق ابن منذر، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن أمير المؤمنين عليه السلام، ما يلي:

«لم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً، ولولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها».

ونقل الإمام أحمد بن حنبل بسند صحيح على شرط الشيخين (كذلك) عن ابن عباس، قال:

«ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة، يدفع الله بهم عن أهل الأرض».

والآن، لو وضعنا هاتين المقدّمتين معاً وجنباً إلى جنب، سنستنتج إمّا أنّ أجداد الرسول صلى الله عليه وآله جميعاً كانوا ضمن الزمرة المسلمة، وهي النتيجة المطلوبة التي نتوخّاها، أو أن ندّعي بأنّ أجداده صلى الله عليه وآله كانوا مُشركين، وفي هذه الحالة لا بدّ لنا من أن نقول بأنّ الآخرين لم يكونوا مُشركين، وكان هؤلاء أفضل وأشرف من أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو ما لا يتفق والحديث النبويّ الشريف، أو أن ندّعي أنّ أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله بالرغم من كونهم مُشركين، إلا أنّهم كانوا أفضل من المسلمين، وهو ما يتنافى وما صرّح به القرآن الكريم:

﴿ ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِك... ﴾[١]

إذن، نستنتج من كلّ ذلك، بأنّ أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله كانوا مؤمنين ومُفضلين على أهل زمانهم[٢].

---

(١) البقرة: ٢٢١.

(٢) راجع: حياة النبيّ وسيرته ١: ٥٣.

ث ـ وهناك روايات أخرى تقول بأنّ النبيّ ﷺ قد انتقل بين أصلاب الأنبياء، مثل الروايتين (٥) و(٦).

والآن، هل يُمكن القول بأنّ جميع آباء وأجداد الرسول ﷺ كانوا أنبياء؟

في البدء، يجب الانتباه إلى أنّ هناك بَوناً شاسعاً بين كلمتي: (نبي) و(رسول)، فقد تُطلق كلمة (نبي) أحياناً على الراعي والحارس لشريعة الرسول؛ إذن، يُمكن القول بأنّ مراد هذه الآية هو أنّ آباء وأجداد الرسول ﷺ كانوا يُراعون واجباتهم الدينيّة وأنّهم كانوا مُحافظين ورُعاة شريعة ودين الأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم، وإن لم يُؤمروا في الظاهر بتبليغ تلك الحقائق.

كتب العلامة المجلسيّ يقول:

«اتفقت الإمامية على أن والدي الرسول وكل أجداده إلى آدم كانوا مسلمين، بل كانوا من الصديقين، إما أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين، ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو لمصلحة دينية»[1].

ويُمكن أن تُحمَل تلك الروايات على الغلبة، أي يغلب انتقال النبيّ ﷺ في أصلاب الأنبياء.

ج ـ الروايات التي تصرّح بأنّ الصلب الذي جاء منه النبيّ ﷺ يُحرَم على جهنم، الرواية رقم (١) التي تدلّ بوضوح على إيمان جدّ النبيّ ﷺ، بل وأجداده ﷺ جميعاً ـ بعد الأخذ بنظر الاعتبار الآيات الشريفة في القرآن التي صرّحت بدخول المشركين جهنم وتعرّضهم للعذاب، مثل الآية (٧٣) من سورة الأحزاب، والآية (٦) من سورة الفتح، والآية (٦) من سورة البيّنة.

الإجماع

يُعتبر إيمان أجداد النبيّ ﷺ أمراً مُجمَعاً عليه لدى الشيعة، حيث صرّح بعض علماء الشيعة بهذا الإجماع. وقد ذكرنا في السطور السابقة وأثناء بياننا لنظرية

---

(١) بحار الأنوار ١٥: ١١٧.

الشيعة، كلام المحدّث الكبير الشيخ الصدوق، والمتكلّم والفقيه الأجلّ الشيخ المفيد، وشيخ الطائفة الطوسيّ، والمفسّر الكبير الطبرسيّ، والمحدّث المعروف العلامة المجلسيّ رحمهم الله، حول مسألة الإجماع على إيمان آباء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ونكتفي بهذا القدر من النقل عنهم.

العقل

اتجه البعض إلى الاستدلال العقليّ لإثبات إيمان أجداد النبيّ صلى الله عليه وآله، ويعتقدون، وكما برهن عليه في علم الكلام، بوجوب زوال الأمور التي تنفّر الناس من النبيّ ودعوته، وأنّها لا ينبغي أن تتواجد في النبيّ، وكفر الآباء أحد تلك الأمور.

ولهذا، ومن أجل إبقاء شرف مقام النبوّة وجلب اهتمام الناس إليها وعدم تنفّرهم من النبي ومما يدعو إليه، يتوجّب على النبيّ أن يولد من أبوين لا يُعرَف عنهما الكفر. ويُمكن بالتالي وَضع هذا الكلام في إطار سائر الاستدلالات المؤيدة لما نقول.

وهذا ما أيّده أبو الفتوح الرازي(1).

وفي حاشية السيرة الحلبيّة عن الفخر الرازي، نقرأ ما يلي:

«إنّ أبوي النبيّ صلى الله عليه وآله كانا على الحنيفيّة، دين إبراهيم، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه، بل إنّ آباء الأنبياء ما كانوا كفّاراً، تشريفاً لمقام النبوّة، وكذا أمّهاتهم...»(2).

وكتب الماورديّ في (أعلام النبوّة) ما يلي:

«لمّا كان الأنبياء صفوة عباده وخيرة خلقه لما كلّفهم من القيام بحقه والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم العناصر واجتباهم بمحكم الأوامر، فلم يكن لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح؛ لتكون القلوب أصفى والنفوس لهم أوطأ... إن الله

---

(1) تفسير روح الجنان ٤: ٤٦١.

(2) السيرة الحلبية ١: ٦٢.

استخلص رسوله من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزّهة»[1].

الشواهد التأريخيّة

يتفق جميع المؤرّخين على وجود جماعات موحّدة بين العرب قبل الإسلام، حيث كانوا يُعرَفون أحياناً بـ(الحنفاء)، وأحياناً أخرى بـ(الموحّدين). ومن بين أولئك الذين وردت أسماؤهم في صفحات التأريخ هم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نُفيل، والنابغة الجعديّ، وقسّ بن ساعدة الإيادي، وآخرين غيرهم[2].

وقد تمّ ذكر أسماء بعض أجداد النبيّ ﷺ ضمن هذه الجماعة من الحنفاء والموحّدين، وسيّدنا عبد المطلب هو أحد أولئك المذكورين.

ولعلّ أبلغ شاهد على إيمان هذا الرجل العظيم هو دوره وكلامه ودعاؤه في حادثة أصحاب الفيل، وكذلك استسقاؤه برسول الله ﷺ والاستشهاد بكلماته وأبياته الشعريّة.

روى المحدّث الكبير الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام، والمؤرّخ المشهور اليعقوبيّ عن رسول الله ﷺ ما يلي:

«إن الله يبعث جدي عبدالمطلب أمةً واحدة في هيئة الأنبياء وزيّ الملوك»[3].

ويقول اليعقوبيّ بخصوص سيّدنا عبد المطلب:

«عبد المطلب يومئذ سيّد قريش غير مدافع... رفض عبادة الأصنام ووحّد الله عزوجل ووفى بالنذر...»[4].

ونقل محمّد بن يوسف الشاميّ عن أستاذه، حول إيمان أمّ النبيّ ﷺ ما يلي:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) راجع: آيتي، تاريخ النبيّ: ١٣ ـ ١٩.

(٣) الكافي ١: ٤٤٦، ح ٢٢، ٢٣ و ٢٤؛ وتاريخ اليعقوبي ٢: ١٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٠.

«ظفرت بأثر يدلّ على أنها (أمّ النبيﷺ) ماتت موحّدة... إذ ذكرت دين إبراهيم وبعث ابنها بالإسلام ونهيه عن عبادة الأصنام... وهذا القدر كاف في التبري من الكفر... فقد كانوا جماعة تحنّفوا وهو التوحيد، فلا بدع أن تكون أمّ النبي منهم... وشاهدت في حمله وولادته من آياته الباهرة، ورأت النور الذي يخرج منه، قالت لحليمة حين جاءت وقد شق صدره: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلاّ والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنّه لكائن لابني هذا شأن. وقدمت به المدينة وسمعت كلام اليهود فيه وشهادتهم له بالنبوة، فهذا كلّه يؤيد أنّها تحنف في حياتها...».

ثم يواصل محمّد بن يوسف الشاميّ حديثه، حيث يسرد الروايات المخالفة لذلك، ويعمد إلى إضعافها[1].

وكتب ابن أبي الحديد حول إيمان سيّدنا عبد الله وسيّدنا عبد المطلب وآخرين، يقول:

فأمّا الذين ليسوا بمطلة فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح، كعبد الله وعبدالمطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل؛ وقسّ بن ساعدة[2].

وفي هذا الصدد، قال الفخر الرازي في ذيل الآية الشريفة: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ... ﴾: وقد أشكلوا على أنّه لم يكن في زمان أجداد النبيّﷺ مِن العرب مَن هو بمُسلم، وكذلك من غير العرب في ذريّة إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام.

ثمّ يُجيب الفخر الرازي على ذلك بقوله:

«قال القفال: إنّه لم يزل الرسل من ذرية إبراهيم وقد كان في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة، ويقال: عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول اللهﷺ، عامر بن الظرب، كانوا على دين الإسلام يقرّون بالإبداء والإعادة والثواب

---

(١) السيرة النبوية ٢: ١٢٦.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٢٦.

والعقاب، يوحدون الله تعالى، ولا يأكلون الميتة ولا يعبدون الأوثان»[١].

أمّا فيما يتعلق بعظمة سيّدنا (هاشم)، أحد أجداد النبيّ ﷺ، فقد بيّن العديد من المؤرّخين شواهد تشير إلى مجده وعظمته وجوده وكرمه، وكذلك إيمانه الراسخ، وتوحيده البيّن.

ومن جملة تلك الشواهد، الخطبة التي كان يُلقيها في بداية شهر ذي الحجة من كلّ عام.

كتب الحلبيّ في (السيرة) ما يلي:

«كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، وإذا أهلّ هلال ذي الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، ويخطب ويقول في خطبته: يا معشر قريش! إنّكم جيران بيت الله تعالى، أكرمكم الله تعالى بولايته، وخصّكم بجواره دون بني إسماعيل، وإنّه يأتيكم زوّار الله يعظمون بيته فهم أضيافه...».

ثمّ كان يكرّر من قوله: «لقد هيّأتُ من المال أحلّه وأطيبه؛ فلم يأت عن ظلم ولا قطع رَحم ولا غصب، ولو كان بمقدوري لأخذت جميع النفقات على عاتقي، ولكن قوموا أنتم الآن بعزل أحلّ أموالكم وأطيبها لهذا الأمر المهمّ...»[٢].

وقد ورد ذكر هذه الخطبة في مصادر أخرى مع اختلاف بسيط[٣].

ولإثبات إيمان أجداد النبيّ ﷺ الآخرين، طبقاً للشواهد التأريخيّة، يُمكن الاستناد إلى جملة منها، والتي تبيّن شيوع دين التوحيد في أرض مكة قبل (عمرو بن لحيّ)، وهكذا يتّضح إيمانهم طبقاً لتلك الشواهد التأريخيّة.

يقول الحلبيّ:

«تظافرت نصوص العلماء على أنّ رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي، فهو أوّل من غيّر دين إبراهيم وشرّع للعرب الضلالات»[٤].

---

(١) التفسير الكبير ٤: ٦٨.

(٢) السيرة الحلبية ١: ٧.

(٣) راجع: السيرة النبويّة، السيد أحمد زيني دحلان: ١٩؛ السيرة النبويّة، لابن هشام ١: ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٠.

وقد ورد هذا المضمون عن رسول الله ﷺ كذلك[1].

وقد عرفت العرب قبل زمان الرسول ﷺ شعار (لبّيْك) على النحو التالي:

«لبيّك، اللهمّ لبيّك، لبّيك لا شريك لك لبّيك...».

وواضح تماماً أنّ شعار كلّ الناس كان شعار التوحيد والدين الواحد وعبادة الإله الواحد ونبذ الأصنام، وأنّ رؤساء القوم وكبراءهم كانوا من التابعين لهذه الطريقة وذلك المَسلك، وأنّ أجداد رسول الله ﷺ غالباً ما كانوا من كبار القوم ورؤساء العشيرة.

وقد نُقل عن (كعب بن لؤي)، الجدّ الآخر للنبيّ ﷺ، والذي عاش قبل النبيّ ﷺ بخمسة قرون، نُقل عنه ما يلي:

فكانت القريش إلى كعب، ثم يعظم ويذكّرهم بمبعث النبي، ويعلمهم بأنّه من ولده، ويأمرهم باتباعه ويقول: سيأتي لحرمكم نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي

(١) المصدر نفسه.

كريم ينشد أبياتاً آخرها:

عــلى غـفلة يأتـي النـبي مـحمد　　　فيخبر أخـباراً صـدوق خـبيرها[1]

وكتب السيوطي يقول:

«قد أخرج ابن حبيب في تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة ومُضَر وخُزيمة وأسد على ملّة إبراهيم، فلا تذكروهم إلّا بخير... وفي الروض الأنف حديث: لا تسبّوا إلياس فإنه كان مؤمناً»[2].

الأدلّة المخالفة

ولإثبات كفر آباء النبيّ ﷺ، استند البعض إلى جملة من الآيات والروايـات، وسنقوم أدناه ببحث ودراسة بعض تلك الأدلة:

١ـ الآيات الدالة على كفر أبي النبيّ إبراهيم عليه السلام:

﴿ ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ... ﴾[3].

﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاك وقَـوْمَك فِـي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[4].

﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولاَ يُغْنِي عَنْك شَيْئًا ﴾[5].

وتواصل الآيات الأخيرة (من سورة مريم) حيث تشير إلى وَعـد إبـراهـيم لأبيه (آزر) بالاستغفار له، وتشير الآية (٨٦) من سورة الشعراء إلى إنجاز إبراهيم

(١) السيرة الحلبيّة: ١٥؛ السيرة النبويّة، زيني دحلان ١: ٩؛ وورد مضمون ذلك في (نهاية الإرب) ١: ٣٣.

(٢) المقامة السندسيّة: ٩.

(٣) التوبة: ١١٤.

(٤) الأنعام: ٧٤.

(٥) مريم: ٤١ ـ ٤٢.

لوعده تجاه أبيه، حيث تقول الآية الشريفة: ﴿ واغْفِرْ لِأَبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾. وقد فسّر بعض المفسرين هذا العمل دعاءاً ظاهرياً، حيث تشير تكملة الدعاء المذكور إلى كونه (أي الأب) كان ضالاً، وأنّه لن يُفلح يوم القيامة: ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وتخبرنا الآية الشريفة (١١٤) في سورة التوبة أنّ إبراهيم وبعد تأكّده من إصرار أبيه على الكفر والضلال، تبرّأ منه قائلاً: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوكَانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * ومَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾.

وتتضمّن تلك الآيات شواهد وقرائن تدلّ على حدوث كلّ تلك الأمور في بداية حياة النبيّ إبراهيم عليه السلام، حيث تشير التكملة في الآية الشريفة قائلةً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وأَلْحِقْني بِالصَّالِحِينَ ﴾[1].

ويُخبرنا القرآن الكريم أنّ إبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه وتبرّأ منهم، وهبه الله سبحانه الذريّة ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله وَهَبْنَالَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ... ﴾[2].

إلا أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام وفي أواخر سنيّ عمره الشريف، وبعد بنائه للكعبة الشريفة، دعا لأبيه إذ قال: ﴿ الْحَمْدُ لله الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾؛ ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ... ﴾[3].

وبالاستناد إلى ما قيل، يتضح لنا بجلاء أنّ الشخص الأوّل الذي أطلق عليه لقب (الأب) يختلف عن الشخص الثاني الذي سُمي بـ(الوالد)، وذلك لأنّ القرآن يُخبرنا بصريح العبارة بأنّه ليس من صفات الأنبياء أن يدعو للكفار، وأنّ الاستغفار الذي قام به إبراهيم عليه السلام عندما كان في مُقتبل العُمر لم يكن إلا عن موعدة وعدها

(١) الشعراء: ٨٣.

(٢) مريم: ٤٩.

(٣) ابراهيم: ٤١.

إبراهيم ﷺ لأبيه، وهو دعاء صوريّ كما قلنا(١).

ويبيّن هذا الاستدلال القرآنيّ بوضوح على أنّ المقصود بكلمتي: (أبي) و(أبتِ) ليس أبا إبراهيم. إضافة إلى هذا، هناك العديد من الشواهد والقرائن التأريخيّة التي أشار إليها المفسّرون، نذكر منها على سبيل المثال:

يقول شيخ الطائفة الطوسيّ:

«قال الزجاج: لا خلاف بين أهل النسب أن اسم أبي إبراهيم تارخ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر... والذي قاله الزجاج يقوي ما قاله أصحابنا أنّ آزر كان جدّه لأمه أو كان عمّه؛ لأن أباه كان مؤمناً...».

ثم يعرض بعد ذلك بعض الأدلة على إيمان والد إبراهيم، مشيراً إلى وجود أدلّة عند الشيعة لا يذكرها من لا يخرج عن تفسير الآيات(٢).

أمّا المفسر الكبير الطبرسيّ فيذكر شبيه كلام الطوسي(٣).

وذكر العلامة الآلوسيّ في تفسيره:

«والذي عوّل عليه الجمّ الغفير من أهل السنّة أنّ آزر اسمٌ لعمّ إبراهيم، وجاء إطلاق الأب على العم في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ...﴾ و عن محمد بن كعب القراظي أنّه قال: الخال والد، وتلا هذه الآيـة، وفي الخبر: ردّوا عليّ أبي العباس».

ثم قام ببيان الاستدلال القرآني السابق بالتفصيل، وفي مَعرض توضيحه للآية الشريفة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وِلِوَالِدَيَّ...﴾ قال:

«فإنه يستنبط من ذلك أن المذكور في القرآن بالكفر هو عمّه، حيث صرّح في الأثر الأول أن الذي هلك قبل الهجرة هو عمّه، ودلّ الأثر الثاني على أن الاستغفار

---

(١) مجمع البيان ٢: ٣٢٢.

(٢) التبيان ٤: ١٧٥.

(٣) مجمع البيان ٢: ٣٢٢.

لوالديه كان بعد هلاك أبيه بمدة مديدة، فلوكان الهالك هو أبوه الحقيقي لم يصح منه هذا الاستغفار أصلاً فالذي يظهر أن الهالك هو العم الكافر المعبّر عنه بالأب مجازاً، و ذلك لم يستغفر له بعدالموت، وأن المستغفر له إنما هو الأب الحقيقي وليس بآزر، وكان في التعبير بالوالد في آية الاستغفار وبالأب في غيرها إشارة إلى المغاير؛

و من الناس من احتج على أن آزر ما كان والد إبراهيم بأن هذه دالة على أنّه شافهه بالغلظة والجفاء ومشافهة الأب بالجفا لايجوز»[1].

وقد بيّن الفخر الرازي كذلك هذا الاستدلال في (التفسير الكبير)، الجزء (٢٤)، صفحة (١٧٤)، والجزء (١٣)، صفحة (٣٨).

أمّا السيوطيّ، فقد أورد في تفسيره ما يلي:

«أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السّدي قال: اسم أبيه تارخ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، قال: ليس آزر أباه... وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس... يقول: إنّ أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنّما اسمه تارخ»[2].

واستدلّ الحلبيّ أيضاً في سيرته بالآية الشريفة: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ على إيمان آباء النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث قال:

«لا يقال: يعارض جعل الساجدين عبارة عن المؤمنين أنّ من جملة آبائه آزر والد إبراهيم وكان كافراً لأنا نقول: أجمع أهل الكتابين على أن آزر كان عمّه، والعرب تسمّي العم أباً، كما تسمي الخالة أمّاً، فقد حكى الله عن يعقوب أنّه قال: آبائي إبراهيم وإسماعيل، ومعلوم أنّ إسماعيل إنما هو عمّه».

ثمّ بيّن الحلبيّ أنّ إبراهيم كان قد استغفر لأبيه في أواخر عمره، ممّا يدلّ على أنّ (آزر) لم يكن أباً لإبراهيم[3].

---

(١) تفسير روح البيان ٧: ١٩٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣.

(٣) السيرة الحلبية ١: ٢٩.

الروايات المخالفة

نقل مُسلم في صحيحه حادثةً، حيث قال: «سأل أحد أصحاب النبيّ ﷺ عن وَضع أبيه الكافر، فأجاب النبيّ ﷺ: «إنّ أبي وأباك في النار»[1].

وذُكر حمّاد بن سلمة ضمن سلسلة سند تلك الروايات، وهو شخص قال عنه علماء الرّجال الكثير فيما يتعلّق بحفظه ودقته في نقل الرواية، وقالت عنه جماعة: «وقع في أحاديثه مناكير دسّها ربيعة في كتبه»[2].

أمّا المشكلة الأخرى التي توجد في هذه الرواية، فهي أنّه، وبموجب هذا الحديث، يُعتبر كلّ الذين عاشوا في ما يُسمى بـ(الفترة) من أصحاب النار، في حين يقول القرآن الكريم بصراحة: ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3].

وما أجمل ما أشار إليه السيوطي في أبياته الشعرية التي سنوردها في نهاية المطاف، حيث بيّن زيف ما ادّعي بكفر آباء النبيّ ﷺ وأنّ الجميع، سواء منهم الشافعيّة أو الأشاعرة، يؤمنون بأنّ كلّ من عاصر الفترة لم يكن الله ليعذبه، بل هم مغفور لهم، لأنهم لم يتمكنوا من معرفة الوحي أو الدين الحقّ ولم تصلهم أخبار الأنبياء، وليس ذلك لإصرارهم على الكفر على الإطلاق[4].

وقد بيّن العجلونيّ كذلك هذا الاستدلال في (كشف الخفاء)، قائلاً:

لقد ذهب المتكلّمون والأشاعرة وعلماء الأصول كافّة إلى المغفرة لمن عاش قبل البعثة ومات، إضافةً إلى الأدلة الكثيرة الدالّة على إيمان أجداد النبي ﷺ، وكذلك الروايات الدالّة على أنّ الله يعيد أب النبي ﷺ وأمّه إلى الدنيا كي يؤمنوا.[5]

وهناك رواية أخرى تشبه تلك، حيث ذكر بعضهم أنّ النبيّ ﷺ قال: «أمّي

---

(١) صحيح مسلم؛ صفة الصفوة ١: ١٧٢؛ مجمع الزوائد ١: ٣١٥.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) الإسراء: ١٥.

(٤) كشف الخفاء ١: ٦١.

(٥) المصدر نفسه.

وأمّك في النار»[1]، ولا حاجة بنا للجواب على هذه الرواية نظراً إلى أننا استوفينا الجواب على الرواية الأولى، فيكون الجواب على هذه الرواية واضحاً وجليّاً.

وذكر الثعالبيّ في مَعرض بيانه وتفسيره للآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله...﴾[2] ما شرحه: أنّ (عديّ بن حاتم) سأل رسول الله ﷺ عن وَضع أبيه (حاتم الطائي) خصوصاً أنّه كان من أهل الكرم والجود، وأنّه كان يُعيل الفقراء والمساكين والمحرومين. فأجابه النبيّ ﷺ: إنّ أباك وأبي وأبي إبراهيم الخليل في النار! فنزلت الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله...﴾.

وفي هذه الرواية كذلك إشكالات كثيرة في مُختلف الوجوه، وآثار الوَضع والدسّ والتحريف بائنة فيها بشكل لا يقبل الجدل.

أمّا وجوه الإشكال فيها فأولاً، وكما أورد محقق الكتاب في حاشيته، أنّ هذه الآية لا تنطبق بأيّ شكل من الأشكال على والد النبيّ ﷺ أو (حاتم الطائي)، لأنهما لم يكونا في عصر الإسلام حتى يُقال عنهما: كفرا وصدّا عن سبيل الله، ولم يورد أيّ واحد إليهما هذا الإتهام. وواضح تماماً أنّ الآيات إنما تشير إلى مَن كان يُعاصر الإسلام وزمن البعثة النبويّة الشريفة وكانوا في صفّ المُحاربين لله ولرسوله.

أمّا الأمر الثاني، فقد أثبتنا فيما سبق، وبالأدلة الدامغة، أنّ والد إبراهيم الخليل عليه السلام لا يدخل النار، وأنّ (آزر) كان جدّ إبراهيم لأمّه أو عمّه، ولهذا، فلو ثبت أصل الرواية، لجاز إطلاق لفظة (الأب) على العمّ، وهو أبو لهب.

وتوجد هناك روايات أخرى بهذا الصدد تمّ ذكرها في الكتب بالتفصيل، وجرى عليها البحث والنقاش، ولم نوردها هنا خوفاً من الإطناب.

لكن مما يُثير العجب، أنّ الفرق والأديان جميعاً تسعى إلى بيان فضائل ومناقب الأنبياء وكذلك الأشخاص الذين تعتبرهم أولياء لله سبحانه، وتبالغ في تحسين صورهم، وحتى المحدثين المسلمين يسعون في كتب الفضائل وخاصة ما

---

(١) مجمع الزوائد ١: ٣١٣.

(٢) الجواهر الحسان ٣: ١٩٤.

يتعلق منها بالصحابة، بالذود عن مناقبهم واستنكار واستهجان الطعن بهم، لكننا مع ذلك نجد طائفةً أخرى تنسب العيب الأكبر ـ وهو الشرك والكفر ـ إلى أجداد رسول الله ﷺ، رغم وجود الأدلة والشواهد التي تفنّد ذلك، وتجاهد في سبيل إثبات ذلك على أولئك الأطهار. بل وإنّ البعض يكتفي بالنقل عن بعض المؤرّخين لإثبات إيمان الحنفاء، من أمثال ورقة بن نوفل ونظرائه. والحق أنّه ليس هناك ما يُمكن قوله بشأن مخالفة كلّ تلك الأدلة والشواهد، والإصرار على مُعاندة الحقيقة فيما يتعلّق بإيمان آباء الرسول ﷺ. وأيّ دليل أو برهان يمتلكه من لا يُقرّ لأولئك بالإيمان؟

وأخيراً، نورد الأبيات الشعريّة الرائعة التي أنشدها العالم السنيّ الكبير (جلال الدين السيوطي)، والتي يؤكّد من خلالها على إيمان أجداد الرسول الأعظم ﷺ، مُشيراً كذلك إلى الأدلة المتعلّقة بتلك المسألة، ومُجيباً على بعض التّهم والافتراءات حول ذلك.

وأمّا الأبيات الشعريّة فهي:

إن الذى بعث النبي محمداً	**أنجى به الثقلين مما يجحف**
و لا وأبيه حكم شائع	**أبداه أهل العلم فيما صنّفوا**
فجماعة أجروهما مجرى الذي	**لم يأته خير الدعاء المسعب**
و الحكم فيمن لم تجئه دعوة	**أن لا عذاب عليه حكم مؤلف**
فبذاك قال الشافعية كلهم	**و الشعرية ما بهم متوقف**
و بسورة الإسراء فيها حجة	**و بنحو ذا في الذكر آي تعرف**
و لبعض أهل الفقه في تعليله	**معنى أرقّ من النسيم وألطف**
إذ هم على الفقر الذي ولدوا ولم	**يظهر عنادٌ منهم وتخلّف**
و نحا الإمام الفخر رازي الورى	**معنى به للسامعين تشنف**
قال الأولى ولدوا النبي المصطفى	**كل على التوحيد إذ يتحفف**
هو من آدم إلى أبيه عبدالله ما	**فيهم أخو شرك ولا مستنكف**
فالمشركون كما بسورة توبة	**نجس وكلّهم بطهرٍ يوصف**

و بســـورة الشـــعراء فـيه تـقلّب   فــي الســاجدين فكــلّهم مـتحنف
هــذا كــلام الشـيخ فخرالديـن فـي   أســـراره هـــطلت عـــليه الأزرف
فــجزاه رب العــرش خـير جـزائـه   و حــباه جـنات النـعيم تـزخـرف
فــلقد تـدّين فـي زمـان الجـاهلية   فـــرقة ديـــن الهـــدى وتــفوا[1]
و جـــماعة ذهـــبوا إلى إحـــيائه   أبـــويه حـــتى آمـــنا لا خـــوفوا
هـــذا مســـالك لو تـفرد بـعضها   لكـــفى فكـــيف لهـــا إذا تـتآلف
و بـــحب مــن لا يــرتضيها صــمة   أدبــاً ولكــن أيــن مـن هـو مـنصف

(١) نقلاً عن كتاب كشف الخفاء، العجلوني.